موسيقى

فينيافسكي رائد العزف على الكمان :

نبوغ مبكر وبراعة خاصة في التأليف والموسيقى

الدكتور سمير ضاهر

مائة عام مضت على وفاة الموسيقار وعازف الكمان البولوني الشهير فينيافسكي الذي كان يلقب بـ باغانيني السلاف. وتحتفل الامة البولونية بهذه المناسبة الجليلة بثلاث مسابقات دولية تحمل اسم ابنها البار هذا وهي مسابقة العزف على الكمان ومسابقة لصانعي آلة الكمان ومسابقة للتأليف الموسيقي.

ولد هنري فينيافسكي في مدينة لوبلن البولونية عام ١٨٣٥ وتوفي في موسكو عام ١٨٨٠ في الرابعة والاربعين من عمره اثر مرض قلبي عضال.

كانت اسرته مشهورة بحبها للموسيقى واعطت العالم ثلاثة فنانين خلدوا اسمها في ميدان الموسيقى وهم: عازف الكمان والمؤلف هنري، اخوه جوزيف عازف البيانو والمدرس والمؤلف (١٨٣٨ — ١٩١٢) وابن اخيهما تاديوش للموسيقار (١٨٧٩ — ١٩٥٠).

اظهر هنري الصغير منذ نعومة اظفاره نبوغا مبكرا في العزف على آلة الكمان وبعد فترة من الدراسة مع الاستاذ سيفاجنسكي (الذي كان تلميذا لعازف الكمان الالماني والمؤلف الشهير لودفيغ سبور المعاصر لبتهوفن واستاذا لعازف الكمان الالماني الكبير جوزيف جواكيم المنحدر من اصل مجري) انتقل بعدها الى كونسير فاتوار باريس حيث قبل فيه بصورة استثنائية بسبب صغر سنه اذ كان ما يزال في الثامنة من عمره وفي اقل من سنة ترفع الى صف اعلى لدى الاستاذ ماسّار وفي الحادية عشرة من عمره انجز هنري الصغير دراسته في كونسير فاتوار باريس وتخرج منه بتفوق حائزا على الجائزة الاولى لكنه اتخذ قرارا حكيما بالبقاء سنتين أخريين تحت اشراف استاذه ماسّار قبل ان ينتقل الى الحياة العملية ويجوب ارجاء العالم مع كمانه.

نبوغ مبكر :

يبدو ان فينيافسكي فطر على العالم رحالة اذ امضى عمره يقطع القارات والمحيطات ناقلا فنه الرائع الى هواة الكمان في اوروبا وامريكا.

في عام ١٨٥١ اي في السادسة عشرة من عمره قام برفقة اخيه عازف البيانو جوزيف بجولة فنية شاملة في ارجاء روسيا حيث سحر مستمعيه بتقنيته الرائعة وحسه الموسيقي الرفيع وبأدائه الشاعري الاخاذ وهذا ما حدا بقيصر روسيا الكسندر الثاني ان يهديه آلة كمان من صنع غوار نيري والتي لا تقدر بثمن كما ان عازف الكمان البلجيكي الشهير هنري فيوتان الموجود آنذاك في روسيا لم يتوان عن اعلان اعجابه الصريح بفن فينيافسكي قائلا: ان فينيافسكي لهو اكثر موسيقية بعشرة اضعاف من باغانيني وانه لم يستمع في حياته الى عازف بهذا السن الصغير يؤدي اعمال الكمان بهذا الكمال.

وفي عام ١٨٥٩ عزف فينيافسكي في لندن على آلة الفيولا (ألتو أو كمان كبير) في الرباعي الوتري الذي كان يضم كلا من المشاهير: جواكيم وايرنست على الكمان وبياتي على الشيلو ولم يتحفظ جواكيم صديق براهمس وشومان في ابداء اعجابه بفن فينيافسكي تقنية وشاعرية اذ قال في مذكراته: ان من لم يشهد عزف فينيافسكي لا يستطيع ان يتصور الامكانيات الهائلة البطولية ليده اليسرى.

في بلاط القيصر :

في الخامسة والعشرين من عمره عيّن فينيافسكي عازفا للكمان في بلاط القيصر الروسي الكسندر الثاني واستاذا للكمان في الكونسير فاتوار الذي اسسه لتوه الموسيقار الروسي أنطون روبنشتاين وكان ذلك في خريف عام ١٨٦٠ وقد بقي فينيافسكي في مركزه هذا حتى سن السابع والثلاثين اي مدة اثني عشر عاما. وبعد ان استقال من منصبه الآسر هذا عاود حياة الترحال والتجول الفني عبر العالم فقام في عام ١٨٧٢ برحلة فنية طويلة برفقة عازف البيانو الروسي الكبير انطون روبنشتاين الى الولايات المتحدة الامريكية حيث عزفا سبعين مرة السوناتا التاسعة للكمان والبيانو لبتهوفن المعروفة باسم سوناتا كروتزر ولكن دون ان يتبادلا كلمة واحدة خلال هذه الفترة الطويلة بسبب ابراز اكبر لاسم روبنشتاين على الاعلانات المطبوعة للحفلات الموسيقية المشتركة فظهر اسم فينيافسكي في المرتبة الثانية عليها. ثم خلال عامي ١٨٧٤ — ١٨٧٦ عُيّن فينيافسكي استاذ للكمان في كونسير بروكسل خلفا للاستاذ البلجيكي الشهير هنري فيوتان وحيث كان من ابرز تلامذته أوجين ايزاي الشهير الذي خلفه فيما بعد في المعهد المذكور (١٨٥٨ — ١٩٣١). خلال اواسط السبعينات اصيب فينيافسكي بمرض قلبي خطير أخذ بالترقي والتردي حتى أجبره على التوقف عن اكمال عزف كونسيرتوه الثاني عام ١٨٧٨ بسبب نوبة قلبية حادة مفاجئة اثناء الحفلة ولكن صديقه جواكيم العظيم الذي كان ضمن الحضور صعد الى المنصة وعوض على الجمهور بعزف سوناتا للكمان المنفرد لجان سباستيان باخ.

رغم مرضه الخطير قرر فينيافسكي الاستجابة لنداء مشاعره التواقة وعاد الى روسيا في اواخر عام ١٨٧٩ مارا بمدينة كييف ثم بمدينة أوديسا وتوفي في موسكو خلال شهر نيسان من عام ١٨٨٠ في هذه المدينة التي خلد محبته لها في مقطوعته الشهيرة « ذكريات من موسكو » وهي من بواكير اعماله الشبابية وتحمل رقم مصنف ستة.

تراث متميز متألق :

خلف فينيافسكي حوالي ثلاثين مقطوعة للكمان ولكن لا أحد يعرف عدد مقطوعاته المفقودة ومن بين اعماله يتفوق زوج كونسيرتو للكمان واوركسترا: اولهما مصنف ١٤ وهو عمل سباقي ما زال يعزف حتى الان بسبب حركته الوسطى التأملية الرائعة المسماة صلاة (برنجيرا) والمتسمة ببروز الالات القاتمة اللون كالفيولا والكيرنيت كما يتسم هذا الكونسيرتو في حركته الاولى بمطلع اوركسترالي رومانطيقي شديد التأثر والتأنق وتخاتمة بشكل روند وذي الطابع شففافة وبهجة لها طابع رقصة الجيغ القديمة.

وقد تم احياء عزفه الاول في مدينة لايبزغ عام ١٨٥٣ واهداه الى ملك بروسيا فريدريك ولهلم الرابع، اما الكونسيرتو الثاني للكمان والاوركسترا فيحمل رقم مصنف ٢٢ وهو عمل اكثر نضوجا وشهرة ولم ينشر خلال عام ١٨٧٠ واهداه المؤلف بسخاء الى زميله عازف الكمان الاسباني الشهير بابلودي سارازات صاحب المقطوعة الشهيرة المسماة : الحان بوهيمية.

وما زالت الحركة الوسطى المعروفة بالكونسيرتو والمسماة رومانسي اشهر اعمال فينيافسكي وبمثابة قلب هذا الكونسيرتو وتعزف احيانا لوحدها خارج اطاره اما الحركة الاوركسترالية المرافقة فتتسم بطابع سحري واثق، واما الحركة الختامية المسماة الاولاني اي على الطريقة الهنغارية فتتميز بطابع منفرج انبساطي بالحانها الوافرة والحيوية وايقاعاتها النابضة النزوية على الغجرية.

ومن الاعمال الاخرى لفينيافسكي مقطوعته المسماة الفالس (ليجاند) مصنف ١٧ التي ألفها عام ١٨٥٩ في اوستندا تحت وطأة حب هامبتون للفتاة الانكليزية ايزابيل الدائبة بين موسكو ونيويورك، باريس وفرصوفيا، بركسل ولندن وكان يلحنها اثناء استراحته بين جولتين او اثناء اقامته في الفندق خاصة اثناء جولته الطويلة في الولايات المتحدة حيث احيا مائتي وخمسة عشر حفلة موسيقية.

براعة وحماسة خاصة :

ان موسيقا هذا البولوني العبقري مليئة براعة تقنية وحماسة متقدة وصعوبات هائلة ساهمت فعليا في تطوير فن العزف على الكمان ونشوء اجيال من العازفين المتفوقين

هنري فينيافسكي

في العالم: فيرتيوز، لكن ازدراءً بالصعوبات التقنية لم يمنع فينيافسكي من الارتقاء الى شاعرية ادائية دافئة وسحر جذب اليه الوف هواة الموسيقى من القوقاز الى كاليفورنيا.

بعد اربعين عاما من وفاة فينيافسكي كتب جورج برنارشو الذي كان ناقدا موسيقيا نافذ البصيرة: اميل دوما للاعتقاد في عازف كمان قادر على اداء اعمال فينيافسكي. كان بتهوفن ومندلسون مؤلفين عظيمين لموسيقى الكمان لكن فينيافسكي كان مؤلفا لموسيقا عظيمة للمكان وهناك فرق كبير بين المفهومين.

هناك عدة عناصر لمؤلفات فينيافسكي: لباب عاطفي نبيل متوهج، انعكاسات فاتنة للرقة والاناقة الفرنسيتين وطابع قومي واضح، والواقع لم يتوان فينيافسكي عن ادخال الالحان الشعبية والقومية البولونية في اعماله خلال فترة الاضطهاد والسحق الاستعماري الثلاثي (بروسيا، النمسا، وروسيا القيصرية) لبلاده وقد ادخل بعض الحان زميليه البولونيين كارول كورينكسي ومونيوشكو في مؤلفاته ليؤكد انتمائه البولوني وليبرز التقاليد الموسيقية القومية خاصة في مازوركاته المتميزة المسماة اوبير تاس (رقصة شعبية)حيث تأجج الهامه فيها الى الذروة باحثا عن جذوره في اعمق منابع الفولكلور البولوني اصالة واقترب من عبقرية مواطنه وسلفه العظيم شوبان في طريقة تعاملهما وتطويرهما لمناهل الفولكلور التراثي القومي.

احياء تراثه الموسيقي :

هذا وقد دأبت الحكومة البولونية منذ الثلاثينات على تكريم فنانيها العظيمين شوبان وفينيافسكي بتأسيس مسابقتين دوليتين تحمل كل منهما اسم احد هذين العملاقين اللذين ساهما عن طريق فنهما في تخليد اسم بولونيا في المحافل الدولية لان الفن والثقافة كانا على الدوام معقلا حصينا للكرامة الانسانية وللهوية القومية ولاستمرار الامة البولونية عبر العواصف والكوارث التي هددت وجودها عبر الزمان — من هنا كان حقد المحتلين النازيين على هذه الثقافة ومحاولتهم تدميرها تدميرا ماديا وطمس معالمها من التاريخ. وهكذا انشأت الحكومة البولونية منذ عام ١٩٣٥ اي في الذكرى المئوية الاولى على ولادة فينيافسكي مسابقة دولية تحمل اسمه مفتوحة لعازفي الكمان الشباب من كل الامم تتم في مدينة بوزنان كل خمسة اعوام بحضور ومشاركة لجنة تحكيم دولية تضم اشهر عازفي الكمان في العالم كما انها أسست المهرجان الدولي لصانعي آلة الكمان وهو يحمل ايضا اسم هنري فينيافسكي وينعقد ايضا كل خمسة اعوام في مدينة بوزنان اما التظاهرة الاحتفالية الثالثة بفن فينيافسكي فهي المسابقة الدولية للمؤلفين الموسيقيين التي تتم ايضا كل خمسة اعوام وتشرف عليها مؤسسة فينيافسكي للموسيقى التي تأسست منذ عام ١٨٨٥.

وللتنويه بأهمية مسابقة فينيافسكي الدولية للكمان نسوق على سبيل المثال أسماء كوكبة من اعظم عازفي الكمان في العالم الذين ساهموا في انجاز المسابقة الاولى التي ساهم فيها مائة وستون عازف من مختلف بلدان العالم بينما ضمت لجنة التحكيم كلا من المشاهير العظام يينو هوباي المجري، جاك تيبو الفرنسي، جورج كولنكامف الالماني وبرونيسلاف هوبرمان البولوني اما سوية المتسابقين فقد كانت على مستوى شديد الرفعة وفاز بجوائزها الاولى كل من جينيت نوفو الفرنسية ودافيد اويستراخ من الاتحاد السوفيتي وهنري تيمبانكا من بريطانيا والعازفين البولونيين ايداهاندل وبرونيسلاف كامبل وغراسينا باشيفيش التي اصبحت فيما بعد اشهر مؤلفة موسيقية في بولونيا المعاصرة. واخيرا لا بد من ذكر حقيقة بديهية وهي انه كما اصبحت مؤلفات شوبان للبيانو زادا يوميا لكل عازفي البيانو فان مؤلفات الكمان لفينيافسكي تشكل ايضا زادا يوميا لكبار عازفي الكمان في العالم من هنا تسميته بشوبان الكمان.

تقنية فينيافسكي على آلة الكمان :

موسيقى فينيافسكي معدة لعازفي الكمان المهرة ولجماهير عشاق الكمان الذين يتلذذون ويستمتعون بالفيرتيوزيتي والمناورات التقنية المذهلة.

من اول خصال هذه الموسيقى ثراؤها ببراعة فنية ساطعة متألقة فهي تزخر بالزغردات المزدوجة (دوبل تريل) التي تكرر لحنين بسرعة، كالارتعاش السريع، وبالنبرات النغمية الشبيهة بالآلة الصافرة المسماة فلاجيولية وبالاكتاف — الجواب، ومقاطع الستاكاتو الطيارة بخفة الهواء، وهذه السمات تشكل كلها ذخيرة رائعة ملائمة بصورة خاصة لآلة الكمان.

اما اسلوب فينيافسكي المميز في العزف فيتلخص بالوثبات الانتقالية المفاجئة والكبيرة وبالقفلات العالية الطبقة (تربيل ستوبينغ) وبالتوافقات الموسيقية ذات القفلات المزدوجة (دوبل هارموني ستوبنغ)، بالمقاطع العشرية وبيزيكاتو اليد اليسرى الشهيرة (قرص الاوتار بالاصبع).